

إعداد
القسم العلمي بدار ابن خزيمة

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين..

أما بعد: فإن القلب هو جوهر الحياة في الإنسان.. فبحسب حياته.. وسلامته ونقائه.. تكون حياة الإنسان وسلامته ونقاؤه.. وهذه الحقيقة كما تدل عليها الشواهد الشرعية تقررها النظريات العلمية والفلسفية في سائر الملل عبر التاريخ.

ومن هنا فإن المسلم الحكيم هو من يفتش عن أسباب صلاح قلبه، وأسباب قوته وعافيته؛ لأنه يدرك أنه متى أمتلك قلبًا سليمًا من الآفات.. فقد امتلك الحياة.. وامتلك نقاءها وجمالها..

وهذا رسول الله ﷺ بيّن أنّ السلامة والصلاح في الإنسان مرتبطة بصلاح قلبه فيقول: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» الحديث [صحيح الترغيب، رقم: ١٧٣١].

أخي الكريم: إن قلبك هو مفتاح السعادة والغنى.. ووعاء السلامة والهدى.. ومصدر القوة والرضى.. ولحرصك على صفائه ونقائه.. أهم بكثير من حرصك على الهواء والطعام.. فكيف تجعل قلبك سليمًا نابضًا بالإيمان والحياة؟.

أولاً: كن صاحب عقيدة

فتوحيد الله جلّ وعلا نور يملأ القلوب.. ويبصِّرها ويقويها.. فهو مادة حياته.. وأساس قوته وسلامته.. ولا حياة للقلب إلا بالإيمان بالله

جلّ وعلا.. ذلك الإيمان الذي يصنع الطمأنينة في القلوب.. والسكينة في النفوس.. لأنه يولِّد فيها من التوكل على الله ما تهون أمامها الصِّعاب.. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.. ويولِّد فيها من الثقة بالله، واليقين به ما تزول به الهموم والغموم والأحزان.. ويولِّد فيها من البصيرة والهدى ما يجعلها أكثر ثباتًا، وقدرة على مواجهة الصِّعاب كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فالإيمان بالله جلّ وعلا نور يسري في قلب المؤمن.. يضيء له الطريق.. ويمكنه من الثبات عليه.. فيرى به الأشياء على حقيقتها: القبيح قبيحًا.. والحسن حسنًا.

أخي الكريم: اعلم أن السعادة والحياة الطيبة في الحياة لا تقوم إلا على أساس واحد هو: الهدى. كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

ثم اعلم أن محل الهدى هو القلب.. وأنّ هذا المحل لا يمكنه حمل الهدى إلا إذا كان فيه من الإيمان واليقين ما يؤهله لذلك.. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾.

ومن هنا فإن تحقيق الهداية مشروط بتحقيق العقيدة الصحيحة، والإيمان النقي من شوائب الشرك بالله، وعلى قدر معرفة المؤمن بربّه.. ويقينه به.. تكون بصيرته وخشيته وهدايته كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وإذا تأملت أخي في تأثر القلوب بذكر الله.. ووجلها من الله.. وجدت ذلك التأثر لا يحصل إلا للقلوب المؤمنة.. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، فعطف سبحانه في هذه الآية اطمئنان القلوب بالذكر على الإيمان.. وهو ما يدل على أن قلب المؤمن أعقل حين سماع ذكر الله؛ للمعاني التي يتضمنها الذكر.. وهو ما يجعله متأثرًا بـه.. وأبصر بالآيات والحقائق الغيبية؛ لذلك، إذا ذكر الله.. أبصر عيبه وأبصر عظمة الله.. وأبصر قدرته ورحمته وصفاته العليا.. وأبصر تقصيره.. وضعفه فأورثته بصيرة قلبه ذلك التأثر الحاصل حين سماع ذكر الله.. بعكس ضعيف الإيمان الذي مات إحساس قلبه.. فلا يسمع ولا يعقل كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، وكما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

فقلب المؤمن.. قلب عاقل.. لا تخدعه مظاهر الأشياء لأنه لا يرى بعينه فقط.. وإنما بقلبه أيضًا.. قال رسول الله ﷺ: «**إن العقل في القلب، والرحمة في الكبد، والرأفة في الطحال، والنفس في الرئة**» [صحيح الأدب المفرد برقم: ٤٢٥].

ولأن قلب المؤمن منور بتوحيد الله.. فإنه أعقل بالآيات الكونية والشرعية.. ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قال الشيخ عبد الرحمن السّعدي: «فوصف الله المؤمنين بهذه الصفات المتضمنة للقيام بأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه، فإنه وصفهم بالإيمان به إيمانًا: ظهرت آثاره في عقائدهم، وأقوالهم، وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وأنه مع ثبوت الإيمان في قلوب – يزداد إيمانهم كلما تليت عليهم آيات الله، ويزداد خوفهم ووجلهم كلما ذكر الله؛ وهم في قلوبهم وسرهم متوكلون على الله»

[التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ص١٥]

ثانيًا: فرِّغ قلبك من الشواغل والأخلاط

١- تقلب القلب: أخي.. إن الإيمان بالله جلّ وعلا، والتوكل عليه، واليقين به كل ذلك يولِّد في القلب قوة، وبصيرة وعقلاً يزن بها الأمور.. ويحقق بها الهدى ليعيش آمنًا من شرور الغي وطرق الردى.

لكن سنة الله اقتضت أن يظل المؤمن في تنازع، ومكابدة ليظل قلبه ثابتًا على الإيمان والتقوى.. لكن المؤمن مهما كانت قوة إيمانه؛ فلابد له من غفوة وضعف.. فإنما سمي القلب لشدة تقلبه.. وعدم ثبته على حاله..

كما قال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لأنسه
ولا القلب إلا أنه يتقلب

وأحسن منه قول رسول الله ﷺ: «**إنما سمي القلب من تقلّبه، إنما مثل القلب مثل ريشة بالفلاة، تعلّقت في أصل شجرة، يقلّبها**

الريح ظهرًا لبطن» [صحيح الجامع الصغير رقم: ٢٣٦].

وهذا التقليب الذي هو أخص صفات القلب، هو منشأ كون الإنسان موصوفًا بالظلم والغدر والخطأ؛ فإنه متقلب في أحواله.. متغير في صفاته.. تغلبه الشهوة.. كما تلتبس عليه الأمور بالشبهة.. ويطغى عليه النسيان كما يتمادى به الهوى والطغيان.. وتغره المتاع.. كما تقهره الطباع.. فهو لسبب أو لآخر متقلب في طبعه.

٢- تطهير القلوب بالتوبة: وهذا التقلب في الإنسان، ما خلقه الله جل وعلا إلا ليبتليه بخطئه كما يبتليه بصوابه، قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**» [رواه مسلم].

وليطلعه على رحمته إذا هو تبصَّر بذنبه وعاد إلى الله تائبًا طائعًا، ومن هنا أخي لابد أن تعلم أنك في كل وقت وحين في حاجة إلى تجديد التوبة والإكثار من الاستغفار؛ فإنهما يطهران القلب من شوائب المعاصي وآثارها وسوادها، ولهذا أوصى الله جل وعلا عباده المؤمنين بالتوبة وجعلها أساس فلاحهم فقال: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربدًّا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا**

ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه»

[صحيح الجامع رقم: ٢٣٦٥]

رأيـــت الـــذنوب تميـــت القلـــوب
وقـــد يـــورث الـــذل إدمانهـــا
وتـــرك الـــذنوب حيـــاة القلـــوب
وخـــير لنفســـك عصـــيانها

أخي الكريم: فإذا علمت أن الذنوب تمرض القلوب.. وتطمس بصيرتها.. وتعطل عقلها.. فاحرص على تطهير قلبك من أمـراض المعاصي باجتنابها.. وملازمة التوبة والاستغفار لإبطال مضـراتها.. فإن قوة قلبك وسلامته مرهونة بصفائه ونقائه.. وإنما ينقى قلبـك بثلاثة أشياء:

الأول: بالتوبة إلى الله والاستغفار من الذنب.

الثاني: بالإكثار من الحسنات، فإنهن يذهبن السيئات، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

الثالث: الحرص على أسباب المغفرة، كالصـلاة، والنوافـل، والوضوء، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والعمرة والحج، ونحو ذلك من موجبات المغفرة المبسوطة في كتب الفضائل والسلوك.

فقد أوصى رسول الله ﷺ معاذًا فقال له: «**اتـق الله حيثمـا كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**».

٢- تطهير القلب من الأمراض: فإن طهارة القلب من أمراضه.. وخلوّه، من أعراضها.. هو أعظم أسباب قوته ولينته ورقته وخشوعه.. وصاحبه هو خير الناس وأحبهم إلى الله.. كما قال رسول الله ﷺ: «**خير الناس ذو القلب المخموم، واللسان الصادق**، قيل: ما القلب المخموم؟ **قال: هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد. قيل**: فمن على أثره؟ **قال: الذي يشنأ الدنيا، ويحب الآخرة**، قيل: فمن على أثره؟ **قال: مؤمن في خلق حسن**» [صحيح الجامع برقم: ٣٢٩١].

فها هنا بين رسول الله ﷺ، طريق نقاء القلوب وحقيقتها.. وجمع بيانه ثلاث صفات هي:

اجتناب الإثم، والبغي، والحسد.

فهذه الصفات هي من أخطر أمراض القلوب، والتي ما أصابت قلبًا إلا ملأته سوءًا.. وظلمة.. وطمست نوره وأضعفت بصيرته..

وإذا كانت الآثام تنكت نكتات سوداء في القلوب، فإن الحسد يأكل حسناتها الموجبة لنقائها كما تأكل النار الحطب.

«والحسد هو: تمني زوال نعمة المحسود أو هو البغض والكراهية لما يراه من حسن حال المحسود.. وهو طبع لئيم يسكن القلوب الضعيفة الميتة مهما كان شأن أصحابها.. فلربما وجدت الضعيفة الميتة مهما كان شأن أصحابها.. فلربما وجدت المرء قد ملك من صفات الحسن وأسباب الملك ما لم يملكه غيره؛ لكنه لغلبة طبعه الحاسد لا يحب رؤية النعمة على غيره.

أخي الكريم: واعلم أن الحسد هو من الاعتراض على حكم الله سبحانه.. كما قيل: «من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد».

قال بعضهم: «ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من الحسود؛ نفس دائم، وهم لازم، وقلب هائم».

وإذا تأملت في قول الله جلّ وعلا: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. علمت أن الحسد طبع غالبًا ما يتسلل إلى القلوب.. لكن القلوب الحية بالإيمان تبصر شعاعه.. فتعكسه وتطرده وترده خائبًا.. لكن القلوب الضعيفة تستجيب.. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

قال ابن تيمية: «ما خلا جسد من حسد، ولكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه».

قال النبي ﷺ: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**» [رواه البخاري].

واعلم أخي أن الحسد كما يوجب قسوة القلب، ولؤم الطبع، وفساد الأخلاق، فهو يعطل القلب من اكتساب أعظم الثواب، إذ القلب الخالي من الحسد مملوء ولابد بالخير؛ فلا تجد صاحبه إلا يحدث نفسه بفعل الخيرات، وإن عجز عنها.. قد سارت به نيته الصافية.. وحبه لنفع العباد.. ما لم تسر الصلوات والقربات بالعباد!.

وقد قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلّ امرئ ما نوى**» الحديث [رواه البخاري].

أخي: فإن رمت القلب الطاهر.. فوطن نفسك على الصبر، وجاهد نفسك في بذل النفع للعباد.. تحسن إلى من أساء إليك، وتصل من قطعك.. وتعطي من منعك.. وتسامح من آذاك.. في الحديث قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**» [صحيح الأدب المفرد ص٣٠٠].

فكما أن تطهير قلبك من الحسد يوجب لك النقاء والسلامة.. فكذا صبرك على الحسود.. واحتمالك لأذاه.. وإحسانك إليه.. يوجب لك الخيرية والراحة والنصر.. كما يمتص حسد الحاسد ويرده.. فإن الغالب في الناس أن الإحسان يمتلك قلوبهم.. ويردهم إلى رشدهم.

كما قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الإنسان إحسان

وأحسن منه قول الله جل وعلا: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾.

٣- أغن قلبك بالقناعة: فإن الحرص يسبب الفقر للقلب، ويحدث فيه فاقة لا يسدّها شيء أبدًا.. أما القناعة والرضى بما كتبه الله من الرزق.. فيوجب للقلب الغنى.. ويولِّد فيه الطمأنينة والسكينة.. وقد قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «**يا أبا ذر أترى كثرة**

المال هو الغنى؟ قلت: نعم يا رسول الله! **قال: فترى قلة المال هو الفقر؟** قلت: نعم يا رسول الله! **قال: إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب»** [صحيح الترغيب والترهيب برقم: ٣٢٠٣].

والقناعة متى سكنت القلوب.. أصابها الخير كله.. وسلمت من آفات الشح والحرص والبخل.. وهي من أخطر الأمراض الفتاكة قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**» [رواه مسلم].

والشح: هو شدة الحرص.

ومن ينفق الأيام في جمع ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقر
ولا تحسبن الفقر فقر من الغنى
ولكن فقر الدين من أعظم الفقر

أخي الكريم: واعلم أن العناية بمقويات القلب وأسباب عافيته أكثر من أن تحصر في هذا الكتاب.. ولكن عليك بكثرة ذكر الله بعد أداء فرائضه؛ فإنه أعظم عون لك على طهارة قلبك.. فإنك إن داومت على ذكر الله تسبيحًا، واستغفارًا وتهليلاً وتكبيرًا وجدت أثر ذلك واضحًا على قلبك، فإن زدت حرصًا على الصيام واجتنبت كثرة النوم والأكل والكلام والضحك.. نلت عافية قلبك وسلامته.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.